بعد أن هجرنا ملكنا وسيدنا ؟ » . بعد قليل من الوقت تعطلت التجارة ولم تعد الدكاكين تفتح أبوابها وبقيت البيوت مغلقة وغزا الشعب الكريملين يطالب بضحايا كما كان قد فعل بعد الحريق الكبير . فهو يريد أن يعرف من من البويار أغضب القيصر ليجعله لقمة سائغة بين فكيه !.

كان ذعراً شبيهاً بما يصيب خلية النحل عندما تموت ملكتها . فقد خرج الناس جماعات من منازلهم يتوقعون الخطر والهم الشديد .

وعقد المتروبوليت مؤتمراً مع البويار . كان ينبغي القيام بشيء ، وناقشوا في البدء احتمال إرسال المتروبوليت إلى القيصر يتوسل إليه في الإياب . ولكن اثناسيوس لم يكن يجد في نفسه القوة ولا السلطة المعنوية الضرورية للتأثير على إرادة العاهل . وبدلاً من ذلك الف الأساقفة وفداً منهم يذهب إلى القيصر باسم المدينة . ومضوا ليتذللوا إلى سيدهم تحت الثلج وأتى يعدهم الأمير إيفان ديميتريفتش بييلسكي وإيفان موتيسلافسكي وكل البويار ورجال الحاشية ونبلاء اقل قيمة وموظفو البلاط ولم يجرؤ أحد على التخلف .

وفي أثناء ذلك كان القيصر قد أقام مع آل بيته نهائياً في مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الغربي من فلاديمير على بعد مائة وستين كيلو متراً من موسكو هي الكسندروف التي تسمى بوجه عام سلوبودا الكسندروفسكا. وكانت على وجه التأكيد المكان الأكثر غرابة مما يمكن ان يشير به الله كملجأ وسكن لسيد لبلاد . وفي الخامس من كانون الثاني يناير ١٥٦٥ وصلت إليه سرية التوبة والندامة والكل يتوسلون اليه بالعودة ويستدرون شفقته المعروفة عنه . كان بإمكانه ان يهجر بلاطه ولكن كيف يمكنه أن يهجر معابد العاصمة المقدسة ومخلفات القديسين. « اتذكر ! ــ قال له الأساقفة ــ انت لست حارس الدولة فحسب بل حارس الكنيسة أيضاً ، فمن سيحافظ في غيابك على إيماننا في حقيقته ونقائه ؟. من سينقذ ملايين النفوس من اللعنة الأبدية ؟ » .